

دلائل الإعجاز

والثاني : أن يكونَ المعطوفُ شيئاً لا يكونُ حتى يكونَ المعطوفُ عليه . ويكونَ الشرطُ لذلك سبباً فيه بوساطةِ كونهِ سبباً لأوّلٍ ومثاله قولُك : إذا رجَعَ الأميرُ إلى الدار استأذنتهُ وخرجتُ فالخروجُ لا يكونُ حتى يكونَ الاستئذانُ وقد صارَ الرجوعُ سبباً في الخروجِ من أجلِ كونهِ سبباً في الاستئذانِ . فيكونُ المعنى في مثلِ هذا على كلامين نحوُ : إذا رجَعَ الأميرُ استأذنتُ وإذا استأذنت خرجتُ .

وإِذْ قد عرفتُ ذلك فإنّه لو عطفَ قولُهُ تعالى : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ) على " قالوا " كما زعمتَ كان الذي يتوصّرُ فيه أن يكونَ من هذا الضربِ الثاني وأن يكونَ المعنى (وإذا خلّوا إلى شياطينهم قالوا إنّنا معكم إنما نحن مستهزئون) . فإذا قالوا ذلك استهزأوا اِنَّهُمْ بهم ومدّهم في طغيانهم يعمهون . وهذا وإن كان يُرى أنه يستقيمُ فليس هو بمستقيمٍ وذلك أنّ الجزاءَ إنّما هو على زعمِ الاستهزاءِ وفعلهم له وإرادتهم إيّاه في قولهم إنّنا آمنا لا على أنّهم حدّثوا عن أنفسهم بأنّهم مستهزئون والعطفُ على " قالوا " يقدّضي أنّ يكونَ الجزاءُ على حديثهم عن أنفسهم بالاستهزاء لا عليه نفسه . ويبينُ ما ذكرناه من أنّ الجزاءَ يندبغي أن يكونَ على قاصدِهم الاستهزاءِ وفعلهم له لا على حديثهم عن أنفسهم بأنّهم مستهزئون أنّهم لو كانوا قالوا لكُبرائهم : (إنّنا معكم نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) : وهُم يريدون بذلك دفعَهم عن أنفسهم بهذا الكلامِ وأن يسلّموا من شرِّهم وأن يوهموهم أنّهم مندهم وإن لم يكونوا كذلك لكان لا يكونُ عليهم مؤاخذهُ فيما قالوه من حدّثوا كانت المؤاخذهُ تكونُ على اعتقادِ الاستهزاءِ والخديعةِ في إظهارِ الإيمانِ لا في القولِ : إنّنا استهزأنا من غيرِ أن يقتربَ بذلك القولُ اعتقادُ ونيةُ .

هَذَا وَهَاهُنَا أَمْرٌ سَوَى مَا مَضَى يوجبُ الاستئنافَ وتركَ العطفِ وهو أنّ الحكايةَ عنهم بأنهم قالوا : كَيْتَ وَكَيْتَ تحرّكُ السامعينَ لأن يعلموا مصيرَ أمرهم وما يُصنعُ بهم وأتَنَزَّلُ بِهِمْ الذِّقْمَةُ عاجلاً أم لا تنزلُ ويُمهلونَ وتوقعُ في أنفسهم التّممّنَ لأنّ يتبيّنَ لهم ذلك . وإذا كان كذلك كان هذا الكلامُ الذي هو قولُهُ : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ) في معنى ما صدرَ جواباً عن هذا المقدّرِ وقوعُهُ في أنّهم السامعينَ . وإذا كان مصدرُهُ كذلك كان حدّثُهُ أن يؤتَى به مبتدأ غيرَ معطوف لكونه في صورتهِ إذا قيل : فإنّ سألتم قيلَ لكم : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ وَيَمْدُدُّهُمُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

وَإِذَا اسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمْ الْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا
يَقْتَضِي